إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الحادية عشرة ـ العدد الثالث والأربعون ـ خريف ١٤٠٠ش/ أيلول ٢٠٢١م
DOR: 20.1001.1.22516573.2021.11.43.1.2
صص ٣٦ ـ ٩

# انقلاب ١٩٥٣ فی إيران وتفكّک خطاب الاستشراق فی رواية "سباق المسافات الطويلة"

**كمال باغجری***

## الملخص

تتمحور رواية سباق المسافات الطويلة لعبد الرحمن منيف حول عميل بريطانی تمّ إيفاده إلى إيران بغية إفشـال مشروع تأميم صناعة النفط، وإسقاط حكومة الدكتور محمّد مصدق، والحفاظ على المصالح الاستعمارية البريطانية فی إيران. تعدّ الرواية منعطفاً فی الأعمال السردية لعبد الرحمن منيف، سواءً من حيث محورية شخصية المستعمِر أو فی جانب محاكاة النصوص الاستشراقية. على هذا، سعت هذه الدراسة إلى تحليل دلالات وتمظهرات تفكّک الخطاب الاستشراقی فی الرواية بالتركيز على تاريخ إيران فی خضمّ انقلاب ١٩ أغسـطس ١٩٥٣ ضدّ حكومة الدكتور مصدّق. إنّ المادّتين التاريخ والاستشـراق يشـكّلان المكوّنَين النظريين لهذه الدراسة؛ ففی مادة التاريخ، رسـم الكاتب صورةً جديدةً لعملية تحول الاستعمار التقليدی وظهور الاستعمار الجديد موظّفاً أحداث وشخصيات انقلاب ١٩٥٣ فی إيران. أما فی مادّة الاستشراق، فقد قدّمت الرواية، عبر السـياق التناصی ومحاكاة النصوص الاستشراقية من منظور "أنا المستعمِر" و"الآخر المستعمَر"، ملامح تفكّک أسـس الاستشراق فی فترة ما بعد الاستعمار حيث تبحث الشعوب الشرقية عن الهوية المستقلة مطالبة ببناء علاقة يسودها الاحترام المتقابل.

**الكلمات الدليلية:** رواية سباق المسافات الطويلة، عبد الرحمن منيف، الاستشراق، انقلاب ١٩٥٣ فی إيران.

*. أستاذ مساعد فی اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، مجمّع الفارابی، قم، إيران
kbaghjeri@ut.ac.ir

تاريخ الاستلام: ١٤٤٣/٠١/٢٥ق تاريخ القبول: ١٤٤٣/٠٢/٢٢ق

**المقدمة**

إنّ عبد الرحمن منيف دائماً ما كان يولي اهتماماً خاصاً فى أعماله السردية بالحديث عن مضمونين أو موضوعين جوهريين؛ الأول، الأنظمة الشمولية والدكتاتورية العربية فى الشرق الأوسط ودور سياساتها القمعية فى تخلّف المجتمعات العربية سياسياً وثقافياً؛ وثانياً، علاقات الشرق الأوسط بالعالم الخارجى ولاسيما القوى الغربية والإمبرالية. وقد تعمّق المضمونان فى نسيج مؤلفات عبد الرحمن منيف تعمقاً، لدرجة لو اعتبرناهما الثيمة أو الفكرة الأصلية لرواياته، لم نتّخذ المبالغة سبيلاً. تتجلّى سمة منيف الفريدة بنوعها مقارنةً بالكُتّاب العرب الآخرين، فى استمراريته فى طرح أسس مفاهيمية ما بعد الكولونيالية أولاً، وتخصّصه العلمى وخبراته الفردية فى القضايا ذات الصلة بالتطوّرات ما بعد الاستعمارية فى المقام الثانى. فمن جهة، يحمل منيف شهادة الدكتوراه فى علم اقتصاد النفط من جامعة بلغراد، ولديه إلمام تام بالتأثيرات الكبيرة لقضية اكتشاف النفط على تطوّرات الشرق الأوسط؛ ومن جهة أخرى، يحمل تجارب كثيرة فى النضالات الثورية والحركات المناهضة للاستعمار. (بلقزيز وآخرون، ٢٠١٣م: ٩٧٦) هاتان السمتان المهمتان قد أدّتا إلى جعل روايات منيف، عند رسمها ملامح الشرق الأوسط فى فترة ما بعد الاستعمارية، صوراً متعددة الجوانب تلقى الضوء على مختلف جوانب السيطرة الغربية على هذه المنطقة، وذلك على عكس الكثير من الكُتاب العرب. فإنّ تواجد المستعمر الغربى، وتأثير النفط على علاقات الشرق الأوسط بالعالم والأنظمة العميلة والقمعية العربية وولائها للمركزية الغربية و.. كلّها تشكّل جوانب لأضلاع هذا الهيكل متعدد الأوجه.

يجب اعتبار رواية "سباق المسافات الطويلة" منعطفاً مهماً فى روايات عبد الرحمن منيف؛ فبعد ما تطرّق فى المرحلة الأولى من كتابة الروايات –التى تنطوى على رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" (١٩٧٣)، و"قصة حب مجوسية" (١٩٧٤)، و"شرق المتوسط" (١٩٧٥)، و"حين تركنا الجسر" (١٩٧٦)، و"النهايات" (١٩٧٧)– إلى انعكاس السياسات القمعية لأنظمة شمولية شرق أوسطية على روح ونفسية المثقف العربى، خاض فجأة بعام ١٩٧٩ وبكتابة "سباق المسافات الطويلة"، تجربة التحول النوعى والمقاربة

الجديـدة، وجعـل معالجة التأثيرات الكبيرة للتنقيب عن الذهب الأسـود فى الشـرق الأوسط على تحولات الاستعمار فى هذه المنطقة على رأس أولوياته. فى هذه الرواية، أصبحـت العلاقات بين الأنا والآخر منطلقاً للعالم السـردى لدى منيف، إذ كان أبطال الروايات فى المؤلفات السابقة (على سبيل المثال "رجب إسماعيل" فى "شرق المتوسط"، و"منصور عبد السلام" فى "الأشـجار واغتيال مرزوق") يرون أوروبا المدينة الفاضلة، وكانوا يذهبون فى الرواية إلى أن تحرّر الشرق من الأنظمة المستبدّة والسلطوية يتوقّف على تبعية النماذج الغربية. غير أنّه فى "سباق المسافات الطويلة" نحن أمام حالة مقلوبة لهذه الظاهرة؛ وهذه المرة ومن منظور شخصية بريطانية، يلقى الكاتب الضوء على رؤية سـلطوية وإمبرالية للحضارة الغربية تستغلّ الشـعوب وتُهيمن على ثرواتها ومواردها الطبيعية اعتماداً على الأساليب القمعية مثل الاغتيالات والانقلابات العسكرية.

## أسئلة البحث

١. ما هى تمظهرات وتجليات انقلاب ١٩ أغسـطس ١٩٥٣ فى إيران (ضدّ حكومة الدكتور مصدّق) فى رواية "سباق المسافات الطويلة" لعبد الرحمن منيف؟
٢. ما هى دلالات ما بعد كولونيالية لانقلاب ١٩٥٣ فى رواية "سـباق المسـافات الطويلة"؟

## فرضيات البحث

١. لقد ألقى انقلاب ١٩٥٣ فى إيران بظلاله على "رواية سباق المسافات الطويلة" وقد تجلّـت تمظهراته فى كافة العناصر السـردية منها: الشـخصيات، والزمن، والمكان، والوصف السردى ومادة الحكاية.
٢. لقد قام الكاتب، بناءً على أحداث انقلاب ١٩٥٣ فى إيران ومن خلال مادّتى التاريخ والاستشراق، بتقديم صورة جديدة لمرحلة ما بعد الاستعمار فى الشرق الأوسط (فى ظلّ اكتشاف النفط) وتفكّک الخطاب الاستعمارى والاستشراقى الكلاسيكيين القديمَين.

**خلفية البحث**

مع أنّ رواية "سباق المسافات الطويلة" هى الرواية الوحيدة فى العالم العربى التى حوّل كاتبها تاريخ إيران وتحديداً انقلاب ١٩ أغسطس عام ١٩٥٣ على حكومة الدكتور محمد مصدّق بحذافيره (الأحداث والشخصيات والأجواء السياسية وبنية المجتمع الإيرانى و...) إلى مادة سردية، إلا أنها لم تحظ كثيراً باهتمام الباحثين والمترجمين الإيرانيين فى مجال الأدب العربى. هذا وإنّ بعض المفكرين والباحثين العرب قد أولوا اهتماماً كبيراً بهذه الرواية، وقد أشاروا إلى علاقتها بالاستعمار، لكنهم وبسبب عدم الإلمام بالأجواء السياسية والاجتماعية لإيران (خاصةً فى السنوات القريبة من انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى) قدّموا قراءة ناقصة ومؤسسة على معلوماتهم للجوانب التاريخية للرواية، وقد أشاروا بإيجاز إلى جوانبها التاريخية، اعتماداً على أقوال الكاتب ليس إلا. إنّ أهمّ الأبحاث المماثلة فى هذا المجال هى:

- «الآخر الشرقى من منظور الأنا الغربية فى رواية سباق المسافات الطويلة لعبد الرحمن منيف» لهادى نظرى منظم، وكبرى روشنفكر، ومحمد رجبى، (١٣٩٩ش): كما يتّضح من عنوان المقالة، قام المؤلفون بتحليل نظرة الأنا الغربى تجاه الآخر الشرقى مستنتجين أن رؤية الشخصية الغربية تجاه الشرق تتغير فى خضمّ أحداث الرواية. لكن على الرغم من وجود بعض المفاهيم النظرية المماثلة بين هذه المقالة والدراسة الحاضرة، تختلف الإثنتان فى كلّ من الأسس النظرية والمنهجية، وكيفية تناول أحداث الرواية، والنتائج، إذ لم يشر مؤلفوا المقالة إلى تاريخ إيران المعاصر أو تفكّك المادة الاستشراقية فى الرواية.
- «تاريخ مدارى در رمان هاى "سووشون" از سيمين دانشور و "سباق المسافات الطويلة" از عبدالرحمن منيف» لرضا ناظميان وفاطمة كاظمى، (١٣٩٤ش): لكن المقال وخلافاً لعنوانه (فى الأجزاء ذات الصلة برواية "سباق المسافات الطويلة") ركّز على الجوانب الشكلية فى الرواية ولم يتطرّق إلى الجوانب التاريخية فيها إلا قليلاً.
- كتاب "أزمة الحضارة العربية فى أدب عبد الرحمن منيف" لصالح إبراهيم

(٢٠٠٤م): یتطرق المؤلف إلی تأثیر اکتشاف النفط وقضیة الاستشراق علی الروایة. مع هذا، فإنّ الکاتب غالباً ما أولی اهتماماً بمؤلفات منیف الأخری ولاسیما "مدن الملح" و"أرض السواد"؛ وقد أفرد قضایا محددة عند التطرّق إلی روایة "سباق المسافات الطویلة". علی سبیل المثال، فان الکاتب وفی فصل بعنوان "الاستشراق فی سباق المسافات الطویلة"، تطرّق فی صفحة واحدة إلی فکرة الاستشراق فی الروایة. وإنها، علی غرار المصادر الأخری ذات الصلة بمؤلفات منیف، لا تعدو کونها إشارة مقتضبة إلی صورة تجربة إیران فی هذه الروایة.

- «مساءلة التاریخ فی روایة سباق المسافات الطویلة لعبد الرحمن منیف» للرشید بوشعیر، (٢٠٠١م): لقد سلّط الکاتب الضوء علی علاقة روایة "سباق المسافات الطویلة" بالتاریخ وعملیة توظیف الأحداث التاریخیة لخدمة الثیمة السردیة؛ إلّا أنّه وعلی الرغم من ذلک، لم یتوغّل الباحث فی خضمّ السیاق التاریخی للروایة ولاسیما صورة انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسکری فیها.

**ملخص الروایة**

هذه الروایة وبشکل وجیز عبارة عن قصة عمیل بریطانی یدعی "بیتر ماکدونالد"، عینته حکومة بریطانیا، وبالتحدید علی ید "راندلی" الذی یلعب دور الأب الروحی لبیتر، للتوجّه إلی أرض شرقیة، کی ینقذ الإمبراطوریة البریطانیة التی تمرّ بمرحلة الإنهیار، ویقوم بإحیاء دورها السابق فی الشرق. إنّ أجواء القصة ترسم فی المخیلة بشکل واضح أوضاع إیران فی حقبة رئاسة الدکتور محمد مصدق للوزراء، وفی خضم انقلاب ١٩٥٣ العسکری، وذلک بالرغم من أن الکاتب لا یشیر فی القصة بشکل مباشر إلی الشخصیات أو الأمکنة التاریخیة بالتحدید. فماکدونالد الذی قد ذاق مرارة الأسر فی معسکرات النازیة فی الحرب العالمیة الثانیة، ثمّ عین موظفاً رفیع المستوی فی شرکة نفط بریطانیا، یسافر أولاً إلی مدینة زیوریخ وثم یتوجه إلی بیروت. وبعد المکوث فی بیروت لأسبوع من الزمن والتعرّف إلی عدد من العملاء هناک (عباس

وشـيرين وميرزا وأشرف) يتوجّه إلى مقصده الرئيس وهو إيران. من الفصل الثانى أى منذ دخول ماكدونالد فى إيران حتى الفصل الخامس (إذ يفرد له ما يقارب ٣٠٠ صفحة مـن الرواية) ينخفض عنصر الفعل والحدث إلى أقل مسـتوياته. وطيلة الفصول الثلاثة يسرد الكاتب مشاهدات ومونولوج ماكدونالد الداخلى حول إيران وإلى حد ما حديثه مع العملاء الداخليين ولاسـيما شـيرين. وفى الفصل الخامس (آخر ثلاثين صفحة من الروايـة)، يبرز عنصر الحدث مرة أخرى، ويعرف القـارئ على الفور ومرة أخرى من خـلال مونولوج داخلى لماكدونالد، بأن القوات الأمريكية تمكّنت من الإطاحة بحكومة "العجوز" (الدكتور محمد مصدق) وذلك بانقلاب عسـكرى، وتسلّمت حكومة عسكرية مقاليدَ الأمور. على هذا، تنتهى رواية "سـباق المسـافات الطويلة" بإخفاق مهمة بيتر ماكدونالد وعلى مسـتوى أعلى، إخفاق إمبراطورية بريطانيا فى الشـرق وظهور قوة امبريالية حديثة العهد أى الولايات المتحدة الأمريكية.

## تفكّك خطاب الاستشراق فى رواية "سباق المسافات الطويلة"

يشـير عبد الرحمن منيف فى مقابلة مع فيصل درّاج، إلى الكمّ الوفير من الأحداث الواقعية التى أوردها فى رواية "سباق المسافات الطويلة" وعلى وجه التحديد الانقلاب العسـكرى على حكم محمّد مصدّق، قائلاً أن "سـباق المسـافات الطويلة" هى الرواية الوحيدة، تقريباً، التى استخدم فيها هذا الكمّ الكبير من الأحداث الواقعية كما حصلت. كما يشـير الكاتب فى نفـس المقابلة إلى المادة الاستشـراقية للرواية قائلاً: نحن ننظر دائماً للغرب ونقيمه من خلال نظرتنا الشـرقية، أمـا كيف ينظرون هم، وكيف يقيموننا، كيـف نتصرّف بنظرهم، وما هـى ردود أفعالنا... فهذه تتطلّب تقمّـص الآخر، وبالتالى رؤيتـه لمنطقة تعنينا. (منيـف، ٢٠٠٧م: ٢٣٦و٢٣٧) بقليل من إنعام النظر فى ما تفوّه به منيف من عبارات وبالطبع فى نص "سباق المسافات الطويلة"، يصبح بإمكاننا ملاحظة عنصريـن مهمين فى بنية هذه الروايـة: عنصر التاريخ وعنصر الاستشـراق. هذا وقد يتساءل القارئ بأنّ الاستشراق يندرج بشكل أو بآخر بصفته فصلاً لعنصر التاريخ، غير أنّ الـدارس يرى بأنّ عنصر التاريخ هـو الإطار الموضوعى والحقيقى للأحداث، بينما

نواجه فى الاستشـراق قراءة مختلقة وذات اتّجـاه أيديولوجى لعنصر تاريخى. فيما يلى نقدّم قراءة لرواية "سباق المسافات الطويلة" بالنظر إلى عنصرَى التاريخ والاستشراق.

**عنصر التاريخ: انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى والتحول النوعى للاستعمار**

كما جاء ذكره، فإنّ الكاتب لم يشر مباشرة وبصراحة إلى زمان أو مكان أو شخصيات تاريخية ارتبط اسمها بانقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى بشكل أو بآخر. وقد يكون هذا هو السـبب فـى تجاهل جميع الباحثين والنقاد ممّن تناولوا هـذه الرواية بالتحليل، التطـرّق إلى الوصـف التفصيلى فى تطبيق فضاء الرواية علـى إيران فى عهد مصدق. (انظر: إبراهيم، ٢٠٠٤م: ٢٢٧؛ جاسـم الموسـوى، لاتـا: ٢٢٩-٢٤٥؛ صالح، ٢٠٠٣م: ١١٧-١٣٣؛ وحسـين شـريف، ٢٠١١م: ٢٦-٣٣) غير أنّه من الواضح إستحالة تقديم صورة واضحة المعالم لدلالات الرواية، دون استيعاب السياق التاريخى للرواية وصورة انقلاب ١٩ أغسـطس ١٩٥٣ العسـكرى الواضحة فيها. على هذا كلّـه، قام الدارس بتوظيف المنهج التوصيفى-التحليلى بدراسة العلاقات الواضحة لفضاء الرواية مع حقبة ٢٠ مارس ١٩٥١ حتى انقلاب ١٩ أغسـطس ١٩٥٣ العسـكرى، وجاءت النتيجة فى الجدول أدناه:

| أسماء الشخصيات والأحداث | المعادل التاريخى (صفحات الرواية) |
|---|---|
| العجوز | الدكتور محمد مصدق: (١٦٨) و(٢٤١) و(٣٧٤) و.. |
| الآخرون | الاتحاد السوفيتى: (٢٨١) و(٢٨٦) و(٣١٦) و.. |
| العاهل المفدى | آية الله الكاشانى (٣٨٠) |
| المنتمون إلى الآخرين/اليساريون | حزب توده (٣١٦) و... |
| المتدينون | أنصار آية الله الكاشانى (٣٢٧) و.. |
| أخت الشاه والمرأة المتجبرة القوية | أشرف البهلوى، والإشارة إلى دورها البارز فى الانقلاب وخاصة عودتها إلى إيران باسم مستعار ونقل رسالة الغرب للشاه (٣٧١) |
| المجرمون المحترفون | البلطجة وأنصار شعبان جعفرى : (٢٥١)، (٢٥٤)، (٣٧٨) و.. |

| | |
|---|---|
| الوزير الأول | الدكتور حسين فاطمى؛ إشارة إلى اعتقاله فى ملجأ وهجوم جماعة شعبان جعفرى عليه بالسكين والعصا (٣٩٣) |
| خروج القوات البريطانية | شرح خروج القوات البريطانية من إيران بعد تأميم النفط (١٦٤ و١٦٥) |
| لقاء العجوز بالسفير الأمريكى | إشارة إلى لقاء لوئى هندرسون (السفير الأمريكى فى طهران) مع الدكتور مصدق (٣٢٧) |
| حلّ البرلمان | حل المجلس السابع عشر بأمر من الدكتور مصدق (٣٧٦) |
| خوف أمريكا من زيادة قوة الآخرين | إشارة إلى خوف أمريكا من وحدة الوطنين واليساريين وكذلك هيمنة الاتحاد السوفيتى على إيران (٢٨١) و(٣١٦ و٣١٧) |
| عدوى العجوز | إشارة إلى تأثير تأميم النفط الملهم على حركات مماثلة فى العالم مثل تأميم قناة السويس فى مصر (٢٢١) |
| تقديم الأمريكيين معونات مالية وغذائية | إشارة إلى برنامج النقطة الرابعة (مساعدات للدول النامية منها إيران) الذى أعلنه الرئيس الأمريكى الأسبق هارى ترومان عام ١٩٤٩ (٢٨٦) |
| مغادرة الملك برفقة زوجته | هروب الشاه من إيران (٣٧٦) |
| الإطاحة بالعجوز وتكليف أحد العسكريين المطرودين بتشكل الحكومة | سقوط حكومة مصدق وتسلم فضل الله زاهدى مقاليد الأمور، عودة الشاه (٣٨٠-٣٨٢) |

عند تحليل السياق التاريخى للرواية وعلاقته بتفكّك الخطاب الاستشراقى، علينا أن نجيب أولاً عن السؤال الذى يدور حول سبب عدم إشارة المؤلف مباشرة إلى الأماكن أو الشخصيات، وذلك على الرغم من ذكر العديد من التفاصيل التاريخية لهذه الفترة (كما هو واضح فى الجدول أعلاه). الرواية تحمل عنوان "سباق المسافات الطويلة" أى مسابقة الماراتون. فبإلقاء نظرة على الرواية، نجد أنّ السباق يجرى بين عدّاءين استعماريين وهما بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. فالعدّاء الأول وبعد قرون من التفرّد وتحقيق الانتصارات فى ساحة الاستعمار وبينما لم يسبق له أن رأى مغيب الشمس فى مستعمراته، يمرّ اليوم (الخمسينات من القرن العشرين) بمرحلة الاحتضار واعتماداً منه على أساليب وتوجهات امبريالية بالية عفى عليها الزمن، وأصبح عاجزاً

عن تحقيـق أهدافه. أما العدّاء الثانـى وهو يتمتّع بالقوة والسـرعة واعتماداً منه على الأساليب الحديثة قد تقدّم على الآخرين. وعلى هذا، إنّ عبد الرحمن منيف وبغية رسم صورة لهذا التحول المفاجئ للقطب الاسـتعمارى، قد اختار منعطفاً ولحظة مصيرية فى تاريخ الشـرق الأوسـط: انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسـكرى. وكما نعلم بأن هذا الانقلاب قد ظهر فى فترة كانت قد وجّهت نيران الحرب العالمية الثانية ضربات موجعة ومميتة على جسد القوى الاستعمارية الأوروبية، وجعلت هذه الدول عاجزة عن الحفاظ على مسـتعمراتها من جهـة، ومن جهة أخرى أدّى دخول الأفـكار التحرّرية الجديدة فى المسـتعمرات إلى توسـيع رقعة الحـركات المناهضة للاسـتعمار وتقويتها فى كافة أنحاء العالم، وأضحت المسـتعمرات القديمة تخرج من نير الاستعمار واحدة تلو الأخرى لتصبح دول مسـتقلة. فيمكن إطلاق حقبة موت الاستعمار المباشر المؤسس على هجوم الجيوش والاحتلال العسـكرى على تلک السـنوات (منتصف القرن العشرين) بشكل أو بآخـر. لكن هل يمكـن ان يندثر الاسـتعمار، هذه الرغبة الجامحة للإنسـان لفرض سـيادته والاستغلال، بين عشـية وضحاها، وينضمّ إلى أرشـيف التاريخ؟ هكذا خرج من رحم الاسـتعمار التقليدى طفل غير شـرعى يدعى الاستعمار الجديد، أمّن المصالح الاسـتعمارية عبر اللجوء إلى أساليب جديدة مثل جعل اقتصاديات دول العالم الثالث تعتمـد على منتج واحد أو تعيـين حكومات عميلة له. ففى مثل هذه الأجواء، شـكّل انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى منعطفاً كبيراً وكشف النقاب عن التمثال الجديد للاستعمار الحديث. فهذا الانقلاب لم يحوّل الولايات المتحدة من القوة الثالثة إلى القوة الأولى فى إيران (آبراهاميان، ١٣٩٢ش: ٥١٥-٥٢٠) فحسب، بل كان بشكل أو بآخر منطلقاً وأساسـاً لدخول العالم فى مرحلة ما بعد الاسـتعمار. فهذه السمات والمكونات الفريدة بنوعها لانقلاب ١٩ أغسـطس ١٩٥٣ العسكرى جعلت عبد الرحمن منيف ومن خلال تقديم سـرد قابل للتأويل لهذا الحدث الجلل وكشـف تبنّى الاستعمار سياسات دموية تحقيقاً لمصالحه، أن يعمّمَ عملية تحوّل الاستعمار لكافة أنحاء العالم ولاسيما منطقة الشـرق الأوسط. بعبارة أخرى، إنّ الكاتب لم ينو تقديم رواية تاريخية بحتة للقارئ من خلال تناول الشخصيات والأمكنة التاريخية وباختصار بإضفاء الطابع الموضوعى على

فضاء الرواية، وإنما -وإلى جانب الاستفادة من عنصر التاريخ- قام بتأليف قصة قابلة للتأويل يمكن أن تنطبق على كلّ دول الشرق الأوسط، بشكل ما، منذ حقبة اكتشاف النفط حتى يومنا هذا.

هذا ويجب التركيز على قضية أخرى ذات صلة بوظيفة انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى عند تقديم قراءة ما بعد الاستعمار لـ"سباق المسافات الطويلة"، وهى الدور المحورى للنفط فى تحوّل الاستعمار وإعادة ترتيب القوى الامبريالية فى خارطة الجغرافية السياسية العالمية. فانقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ العسكرى وبالرغم من مزاعم الإدارة الأمريكية بأنه هدف إلى مواجهة الشيوعية الدولية والحدّ من نفوذ الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط، إلا انّه فى حقيقة الأمر كان عبارة عن مساع للحفاظ على كارتل النفط الدولى وتحديد المتحكّم فى إنتاج النفط وتوزيعه وبيعه منذ تلك الفترة. (آبراهاميان، ١٣٨٩ش: ٢١٨) وعلى هذا، فإن "سباق المسافات الطويلة" تعتبر النفط أهمّ عنصر فى دخول الشرق الأوسط مرحلة ما بعد الاستعمار وخروجه من مرحلة الاستعمار التقليدى. يقول لويس ميغيل كانيادا (مترجم مؤلفات منيف للاسبانية) عن صورة الغزو الأمريكى للنفط فى "سباق المسافات الطويلة": «تذكّرنا هذه الرواية بأنّ النفط، المادة المحايدة فى الأصل، ليس له فقط القدرة على رسم الخارطة الجيوسياسية الجديدة للمنطقة، بل وعلى تحديد حاضر ومستقبل الشرق، بل حتى تحديد نظرة الآخر للعرب.» (دراج وآخرون، ٢٠٠٩: ٥٠٦) تبدأ رواية سباق المسافات الطويلة بهذه العبارة: «مَن يملك الشرقَ يملك العالمَ.» (منيف، ٢٠٠٠م: ٧) لكن كما نعلم أن القوى الاستعمارية قد سعت فى مختلف الحقب إلى أهداف مختلفة وراء السيطرة على الشرق. ففى المرحلة الأولى، كان هدف القوى الأوروبية من غزو بوابات الشرق يتمثل فى الحصول على الموارد الطبيعية وأسواق البيع. فمثل هذه الأهداف، وفى المقام الأول، تتطلّب تواجد المستعمر المباشر فى المستعمرات. لكن شيئاً فشيئاً وبعد اكتشاف الذهب الأسود وإرتفاع الثروات النفطية فى الشرق الأوسط، الذى تزامن إلى حدّ ما مع توسيع رقعة الحركات المناهضة للاستعمار، قد استحال استمرار تطبيق الاستراتيجيات السابقة. ففى ظلّ هذا التحوّل النوعى، تقدّم رواية "سباق المسافات الطويلة" صورة

لمساعی قوتین استعماریتین (بریطانیا والولایات المتحدة) إذ دخلتا الساحة للسیطرة علی الشرق الأوسط؛ غیر أنّ القضیة الجوهریة هنا هی أن الحکومة البریطانیة ودون إعارة الاهتمام ببدایة دخول العالم مرحلة ما بعد الاستعمار، تبغی إرساء مصالحها اعتماداً علی نفس السیاسات الاستعماریة السابقة التی سارت علیها. أما الطرف الاستعماری الثانی الذی فطن إلی تأثیر النفط السحری فی السیطرة علی نبض قوة العالم، یقوم ومن خلال إتّباع سیاسات الاستعمار الحدیث، بتعزیز مصالحها الامبریالیة الشاملة فی الشرق الأوسط، دون التواجد العسکری المباشر فی الشرق الأوسط.

تجدر الإشارة إلی أن جهل المسئولین وصنّاع القرار فی لندن لسیاسات البیت الأبیض فی الروایة هذه إتّخذ طابعاً رمزیاً أکثر من کونه یحمل حقیقة تاریخیة موضوعیة، إذ ینظر الکاتب إلیه بصفته رمزاً لتحول الاستعمار التقلیدی إلی الاستعمار الجدید. غنی عن القول بأنّ الکثیر من المؤرّخین والباحثین عزوا انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ إلی تعاون الأنظمة الإستخباراتیة الأمریکیة والبریطانیة الوطید. (آبراهامیان، ١٣٨٩ش: ٢٢٢) غیر أن فی روایة "سباق المسافات الطویلة" یعیش المسئولون والساسة البریطانیون فی حالة من التوهّم النرجسی، ومازالوا یرون بأنه بالإمکان السیطرة علی الشرق اعتماداً علی استراتیجیات الحقبة الفیکتوریة. علی هذا الأساس، فإنّ التواجد البریطانی فی الروایة وحضور عناصره الداخلیة الناشطة (شیرین ومیرزا وعباس وآیة الله و...) الذین یرون أنّ مصالحهم لم تتحقق إلا بالإطاحة بحکومة الدکتور مصدق، واضح وبارز تماماً؛ بید أن القوات الأمریکیة وبشکل عام السیاسات الأمریکیة، یحیطها الغموض. بعبارة أخری ومهما فقدت السیاسات الامبریالیة البالیة لبریطانیا (سیاسة فرّق تسد، وإثارة الأحاسیس الدینیة للجماهیر، و..) تأثیرها السابق، إلا أنها تعاد للقارئ فی خضمّ سرد القصة بطابع سخری؛ لکن سیاسات المستعمِر الجدیدة تُجعل فی خانة الخفاء الکامل. وفی نص "سباق المسافات الطویلة" یری القارئ بأنّ السیاسیین الأمریکیین یبرمون الصفقات الخفیة مع عناصر للسیاسة الداخلیة الإیرانیة من وراء الکوالیس. ومن المدهش أنّ إستراتیجیة الولایات المتحدة وسیاساتها الإمبرالیة تثیر علامات الاستفهام حتی لعمیل مخضرم مثل بیتر ماکدونالد، وتبدو له غامضة ومدهشة:

«الأمريكيون يتدفّقون مثل الطيور المهاجرة... إنّهم موجودون فى كل مكان... قلتُ لمبعوثى الشركة ولراندلى عشرات المرّات إنّ البرابرة أتوا، وهؤلاء يخفون فى حقائبهم أشياء كثيرة، لكن لا أحد يسمع. لا أحد يتوقّف عند هذه النقطة.» (منيف، ٢٠٠٠م، ٢٨٠ و٢٨١) ومثل ماكدونالد مثل كبار المسئولين فى لندن، إذ لا يلمّون إلماماً دقيقاً بسياسات الولايات المتحدة، بل ينظرون إليها بنظرة أشخاص عديمى الخبرة والحضارة. على سبيل المثال، يقول راندلى (رئيس بيتر ومن رؤساء أجهزة مخابرات بريطانيا) فى إحدى رسائله لبيتر ماكدونالد: «إنّ هؤلاء [الأمريكيون] حمقى بالمعنى الحقيقى، وأعتقد أنهم سيبقون كذلك حتى لو ملكوا جميع ثروات العالم. المسألة يا بيتر متعلقة بالحضارة، متعلقة بالذكاء.» (المصدر نفسه، ٢٨١) كما أنّ لندن تستخفّ بهم ردّاً على تحذيرات ماكدونالد: «نقدّر باهتمام المعلومات التى وردت فى تقريرك الأخير حول وصول أعداد كبيرة من الأمريكيين. إن هؤلاء لا يشكلون خطراً علينا، كما ليس لديهم مطامع فى المجال الذى نعمل فيه.» (المصدر نفسه: ٢٨١) وحتى ماكدونالد نفسه يعتبرهم وحوشاً ويقول: «هؤلاء الأميركيون وحوش يلبسون ثياباً غالية الثمن، لكنها ثياب فجة تفتقر إلى الحضارة، وتفضحهم بسرعة.» (المصدر نفسه: ٣٠١) لهذا وفى نهاية القصة وبعد تحقيق المشروع الأمريكى نتيجته، يعيش ماكدونالد حالة حيرة ودهشة: «تكشّفت تفاصيل لم تخطر لى على بال، لكن أغربها كان موقف الأميركيين، فقد كانوا يعملون منذ وقت طويل، دون أن نحسّ، ورغم البلاهة التى تظهر على وجوههم أو فى تصرفاتهم، فى أحيان كثيرة، إلا أنهم كانوا يعملون، وهم فى عملهم يمتازون بشىء أساسى لا يخطئون فيه: يعرفون ماذا يريدون. أما نحن فقد ظللنا فترة طويلة نحلم، نعيش فى الماضى، وظللنا بشىء لا يمكن أن نستعيده.» (المصدر نفسه: ٣٩١)

إنّ إخفاق بريطانيا فى هذا السباق الامبريالى بلغة رمزية يعنى تفكّك الخطاب الإسشراقى المؤسّس على بنية الاستعمار التقليدى وظهور الاستعمار الحديث. فهذا الانهيار يتخذ طابعاً سخرياً فى الفصل الأخير للرواية حيث تبدأ مقدمة هذا الفصل بعبارة تشرشل الشهيرة: «لم أصبح رئيس وزراء جلالة الملكة لكى أصفى الإمبراطورية البريطانية.» (المصدر نفسه: ٣٦٧) لكن فى نفس الفصل بالذات، تؤول سياسات

بريطانيا الاستعمارية بالفشل، وتعترف بريطانيا بهزيمة امبراطوريتها الاستعمارية: «لكن بريطانيا أصبحت هرمة، صحيح أنها تتزين الآن، تتظاهر بالصبا، لكن يبدو أنّ الأميركيين سيطروا عليها، تماماً كما يسيطر شاب صغير على امرأة مسنّة، إنه يحولها إلى قرد... لقد سلّمنا لهؤلاء الخنازير وما علينا إلا أن ننتظر لنرى النهاية.» (المصدر نفسه، ٣٧٣) وفى الصفحات الأخيرة من الرواية، يموت راندلى -الذى أدّى فى القصة كلّها دور الأب الروحى لبيتر ماكدونالد- على حين غرّة؛ وموته يرمز إلى إنهيار الإمبراطورية البريطانية أو موت الاستعمار التقليدى: «ربّما كان يفضّل أن يغمض عينيه قبل أن يشهد الجانب الآخر من التلّ، قبل أن يشهد نهاية الإمبراطورية البريطانية.» (المصدر نفسه: ٣٩٤)

**مادة الاستشراق: تزلزل الاستشراق فى خضم أفول الإمبراطورية**

قد تناولنا فى الأسطر السالفة وظيفة مادة التاريخ فى سرد رواية "سباق المسافات الطويلة". أما المادة الأخرى التى تبرز نفسها بروزاً لافتاً فى هذه الرواية وقد ترک تأثيرها فى الكثير من الجوانب حتى على عنصر التاريخ، فهى الاستشراق. ذلک أنّه كما أشرنا من ذى قبل، فان الكاتب قد قدّم عنصر التاريخ فى الرواية (فى خضم تأميم النفط وانقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣) بأسلوب غير مباشر وقابل للتأويل، إذ يمكن أن يعمّم على الكثير من الأمكنة والأزمنة التاريخية الأخرى؛ غير أن عنصر الاستشراق يتمتّع بتجليات وتمظهرات مختلفة فى "سباق المسافات الطويلة"، لدرجة لو اعتبرناها إعادة كتابة لنص كتاب "الاستشراق" لادوارد سعيد، فلم نقل قولاً جزافاً. ففى جانب حجم السرد يسيطر عنصر الاستشراق فى "سباق المسافات الطويلة" على عنصر التاريخ سيطرة كاملة، وإنّ ثلاثة فصول هى اكبر حجماً من الفصول الخمسة فى الكتاب (الفصل الثانى والثالث والرابع) متأثرة بهذه المادة، وكأن منيف يريد امتزاج كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد ببناء سردى، ويستخرج من جوفه نوعاً فنياً جديداً للقارئ. فيما يلى نتناول أولاً الترابطات العميقة بين عنصر الاستشراق ورواية "سباق المسافات الطويلة" وثمّ نقوم بدراسة صورة هذه الرواية لفكيک الاستشراق فى عصر

ما بعد الاستعمار.

## ترابط "سباق المسافات الطويلة" بنصوص الاستشراق

### ١. تاريخ كتابة الرواية

قد كتب عبد الرحمن منيف سباق المسافات الطويلة بعام ١٩٧٨م أى بعد أشهر من نشر كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد، وقد نشره بعام ١٩٧٩م. بعبارة أخرى، جاءت كتابة "سباق المسافات الطويلة" فى فترة لقيت الصورة العارية والمثارة للجدل التى قدّمها الناقد الفلسطينى-الأمريكى لأسس الاستشراق صدى واسعاً فى العالم ولاسيما الدول العربية. هذا وفضلاً عن تاريخ كتابة الرواية، تبين تصريحات الكاتب نفسه، بأنه كان على معرفة تامة بخطاب الاستشراق النقدى ومساعيه لتحدى الصورة المختلقة والمنحازة للمستشرقين من الشرق، إذ يقول فى هذا الصدد: «إنّنا، كعرب، مرسومون فى ذاكرة الغرب من خلال الاستشراق بانحيازه وأهوائه وقراءته الوحيدة الجانب، وأيضاً بكمّ وفير من العداء وتناقض المصالح، هذا فى إطار التاريخ والعلاقة بين حضارتين وثقافتين! أما الصورة الراهنة فقد أبدع النفط فى رسمها وتقديمها. فنحن، كتلخيص، مجموعة من الشيوخ الأثرياء الكسالى الشبقين، والقساة القلوب، وجدنا بالصدفة ثروة هائلة تحت أقدامنا: النفط.» (منيف، ٢٠٠٧م: ٩٧)

### ٢. أسلوب السرد

كما أشرنا فى ملخّص الرواية، فإن الجلّ الأعظم من رواية "سباق المسافات الطويلة" يتكوّن من وتيرة سردية بطيئة تفتقد إلى الأحداث. فى الحقيقة، فإننا نشاهد الحيوية والنشاط النسبى للأحداث وزمن السرد فى الفصل الأول والخامس من الرواية حيث يتناول الكاتب أحداث الانقلاب العسكرى (ما يقارب ١٠٠ صفحة)؛ غير أنه فى النسبة الباقية التى تصل إلى ثلاثة أرباع الرواية (ما يقارب ٣٠٠ صفحة) جعلت مشاهدات بيتر ماكدونالد ومونولوجه الذاتى -الذى يتخذ سمة الوصف المتشائم للغاية، والمظلم لمحيطه، أى الأرض الشرقية (إيران)- جعلت وتيرة السرد يبلغ أكثر الحالات

بطئاً. ولهذا ذهبتُ فى مستهلّ هذه المقالة بأن سرد "سباق المسافات الطويلة" لهو سرد فريد بنوعه فى آثار منيف السردية. وجدير للذكر أن سمة الفريدة بنوعها لا تدلّ على السمة التعقيدية للسرد؛ ذلک أن منيف فى مؤلفاته السابقة ("الأشجار واغتيال مرزوق"، و"شرق المتوسط"، ولاسيما "حين تركنا الجسر") واعتماداً على أسلوب تيار الوعى، قد قدّم سرداً أكثر تعقيداً ذات جوانب متعددة؛ غير أننا فى "سباق المسافات الطويلة" نواجه سرداً بسيطاً جداً ظهر بأسلوب حكايات الرحلات والاتوبيوغرافى التقليدى، إذ يقدّم الراوى مشاهداته من وجهة نظره إلى القارئ. كما ينتقل وصف فضاء إيران فى هذه الرواية وبأسلوب الرحلات التقليدية، من وجهة نظر بيتر ماكدونالد إلى القارئ. هذا وهنا من الأفضل استخدام مصطلح "التبئير" (Focalization) بدلاً من مصطلح "وجهة النظر" (Point of view)؛ ذلک أنه فى سرد القصة، فضلاً عن مشاهدات ماكدونالد، يتمّ نقل إدراكه وإيديولوجيته الشخصية إلى القارئ. إنّ ماكدونالد فى هذه الرواية، ليس مُراقباً لما يحيط به فحسب، بل يقوم متعمداً بإحداث تغيير فى وتيرة السرد، وعلى غرار نصوص الاستشراق التقليدية، يقدّم صورة إيران كما يريد. على هذا، فإن جلّ أجزاء سرد "سباق المسافات الطويلة" قدّمت بأسلوب "التبئير الداخلى" إذ إنّ استيعاب وفهم القارئ لفضاء إيران يبقى محصوراً فى إطار معلومات بيتر ماكدونالد واستيعابه للأمور ولا يتجاوز هذا الحد. وهكذا، نرى بأن سرد "سباق المسافات الطويلة" ومع أنه يبدأ بضمير الغائب، إلا أن لهذا السارد حضوراً محدوداً حتى نهاية القصة؛ لكن بعد دخول ماكدونالد فى إيران (من الفصل الثانى فصاعداً) يقلّ دور السارد الغائب حضوراً، وبدلاً منه تقود المشاهدات والمونولوج الذاتى لماكدونالد أو -بعبارة أجلّ- تفاسيره ورؤيته المفضّلة لإيران أحداثَ القصة. بعبارة أخرى، فى "سباق المسافات الطويلة"، يقع وظيفة تطوير الحدث السردى وزمنه على عاتق الغائب، بينما السارد بضمير المتكلم (ماكدونالد) يتولّى مهمة وصف فضاء إيران. فى الرسم البيانى أدناه نشاهد أسلوب السرد والتبئير فى رواية "سباق المسافات الطويلة":

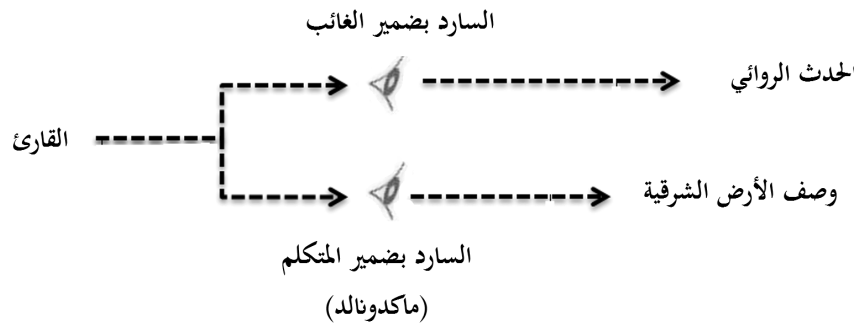


مـا يثير الانتبـاه هو أنّه حتى فى أجزاء الرواية الأولى التى يتمّ السـرد من وجهة نظر السارد الغائب، فإنّ وصف فضاء الأرض الشرقية (إيران) يتمّ عبر توظيف أسلوب النقل المباشر من وجهة نظر ماكدونالد إلى القارئ: «فى الأسواق المكتظة التى سبق أن مرّ بها فى السيارة، بدأ يحسّ هذه المرة أن الأشياء التى يراها أكثر واقعية وبؤساً، وتتّسم بالكثير من القسـوة والقذارة. قال فى نفسـه وهو ينظر إلى رجل عجوز يبيع السجائر فى دكان صغير: "هؤلاء الشـرقيون ولدوا للموت. الموت ينبع من كلّ شـىء فيهم، من النظرات، من التأمّل الأبله، من الرخاوة. إنهم أموات بمعنى معين".» (المصدر نفسه: ٩٥)

تسـتمرّ هـذه العملية حتى خروج الراوى الغائب من المشـهد نهائيـاً، ويتفرّد بيتر ماكدونالـد (الذى يحتلّ مكانة الراوى المتكلم) فى عملية السـرد. هذا الإحلال يتجلى تجلياً عندما يبلغ الحدث السـردى إلى أدنى مستوياته، ويتحوّل وصف الأرض الشرقية إلى العنصر الرئيس للسرد. على سبيل المثال، فى القسم الرابع عشر من الفصل الثانى، إذ يتطرّق إلى وصف أجواء إيران، يتمّ سرد القصة من منظور ماكدونالد بالكامل: «حال عودتى إلى بريطانيا سأبدأ بكتابة أشياء كثيرة عن هذا الشرق الغامض؛ إننى الآن أدوّن ملاحظات كثيرة...» (المصدر نفسه: ٢٤٦)

لكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: ما علاقة هذا الأسلوب السردى بالاستشراق؟ للإجابـة يجب القول بأن المستشـرقين (خاصة فى عصرهم الذهبى أى القرنين السـابع عشر والثامن عشر) كانوا يستخدون نفس الأسلوب السردى لتقديم صورتهم المصطنعة والمحبّـذة والمنحازة ونقلهـا للبورجوازية الأوروبية؛ صورة تمثّل الشـعوب المسـتعمَرة (الآسـيوية والإفريقية وأمريكا اللاتينية) نموذجاً للكسـل والجهـل والضياع، إذ تنتظر

أراضيهم المهجورة والقاحلة والمقفرة مُنقذاً يمنحهم العمران والنشاط والإنتاج. يقول إدوارد سعيد فى كتابه "الاستشراق" عند الحديث عن أسلوب الكتابة لتقديم الصورة أعلاه: «الاستشراق يرى أن الشرق يقتصر وجوده على ما يشاهَد، بل وأنّه ظلّ ثابتاً فى الزمان والمكان بالنسبة للغرب. النجاح الباهر الذى حقّقه الاستشراق هو فى مناهجه الوصفية والنصية [...]. فالغرب هو الفاعل، والشرق يقابله بردّ سلبى. والغرب هو المشاهِد والقاضى وهيئة المحلفين فى كل قضية تتعلق بأى جانب من جوانب السلوك الشرقى.» (سعيد، ٢٠٠٦م: ١٩٢-١٩٣) وفقاً لرؤية سعيد هذه، يجب القول بأنه فى "سباق المسافات الطويلة" يحتلّ بيتر ماكدونالد موقف المُشرِف والقاضى الذى يرافق إشرافَه وتحكيمَه الريبةُ والتشاؤمُ. فيما يلى نتناول بعض المدلولات البارزة لهذه النظرة الأحادية الجانب.

### ٣. فحوى الرواية

فضلاً عن أسلوب سرد "سباق المسافات الطويلة" الفريد بنوعه الذى يستحضر بوضوح الأجواء السائدة على نصوص الاستشراق، يستحضر كذلك اهتمام ماكدونالد الكبير فى وصف حياة الأرض الشرقية -وصفاً دقيقاً تُعنى بتفاصيل الحياة اليومية- نصوصَ الاستشراق. فى الحقيقة، لو تطرقنا فى الموضوع السابق (أسلوب السرد) إلى علاقة أسلوب السرد بنصوص الاستشراق، فهنا نلقى الضوء على حجم الوصف وعلاقته بالنصوص المذكورة أعلاه. فان الملاحظات الشخصية لماكدونالد ووصفه يغطى على وجه التقريب كلّ جوانب الحياة الشرقية. لهذا فإن جلّ فصول "سباق المسافات الطويلة" تشبه فى الغالب موسوعة خيالية تتناول سلوكيات سكّان الشرق وممارساتهم، من أن تكون قصة حول كيفية حضور الاستعمار الحديث فى الشرق الأوسط. يقول صلاح صالح فى كتاب "سرد الآخر" حول هذا الحجم الكبير لوصف فضاء الأرض الشرقية: «استأثر وصف الشرق وانتقاده بعين المستعمر الأوروبى الجديد صفحات ومقاطع طويلة، أو مطولة إلى الحدّ الذى يفضح الجهد المبذول من أجل مطّها بشكل بدا مفتعلاً وخارجاً عن السياق العام للرواية، فكلما أوحت نهاية فصل ما بالانتقال

إلى سواه فى محطة حدثية جديدة، تتذكّر الرواية عبر ماكدونالد انتقاداً إضافياً أو أهجية أو سوءاً عامّاً.» (صالح، ٢٠٠٣م: ١٢٢ و١٢٣) تنطوى الملاحظات الشخصية لماكدونالد على السلوكيات الشرقية وتقاليدهم ومكانة المرأة والعمّال والمثقفين وأسلوب تناول الطعام وملابسهم. وكما تقول سحر حسين شريف، فإن «هذه النظرة الاستشراقية تشتمل على الإنسان والطبيعة وحتى الحيوانات الشرقية.» (حسين شريف، ٢٠١١: ٣١) فى الجدول أدناه، نلقى نظرة على بعض جوانب وتجليات ملاحظات بيتر ماكدونالد لبيئة إيران بمختلف أشكالها:

| |
|---|
| **سلوك الشرقي:** «إنّ هؤلاء الشرقيين لهم طبائع خاصة وغريبة، فهم أقرب إلى الحذر والارتياب، يشكّون كثيراً فى كلّ شىء، رغم الثبات الظاهرى الذى تلمسه فى وجوههم. إنهم أقرب إلى الحيوانات الوحشية، لا يثقون بالآخرين.» (منيف، ٢٠٠٠م: ١١٨)؛ «هؤلاء الشرقيون لا يكفون لحظة عن التمثيل والتقليد، إنهم يفعلون ذلك بثقة تصل بعض الأحيان درجة الإزعاج، وراندلى على حق حين قال إنهم كالقطيع، إنهم دائماً يركضون وراء الدابة الكبيرة.» (المصدر نفسه: ٢٢٥)؛ «إن طباع الشرقيين التنكر وعدم الاعتراف بالجميل.» (المصدر نفسه: ١٥٤) |
| **المرأة الشرقية:** «إنّ المرأة الشرقية مخلوق مختلف عن الرجل الشرقى وعن المرأة الغربية. إن لها عالماً خاصاً وغريباً. وبمقدار ما تبدو شديدة الرغبة فى إظهار مفاتنها من خلال الملابس والمساحيق والأصباغ التى تستعملها فى طلاء الوجه والأظافر... تخاف نفسها وتخاف الآخرين كثيراً... وهى لكثرة تفكيرها فى الجنس ورغبتها الهائلة فى ممارسته تعرف كيف تكون فنانة لدرجة الإثارة.» (المصدر نفسه: ١٣٨) |
| **الملابس الشرقية:** «ألوان الملابس بدائية جداً، ولا تتعدى الألوان الرئيسية، أقصد ألوان الطيف الشمسى، وإن كانت الملابس السوداء هى الغالبة عدا فترات الصيف، إذ يتبدل اللون الأسود ويحل مكانه الأبيض... بكلمة واحدة: إن ملابس الشرقيين تعكس طبيعتهم وتفكيرهم. صحيح أن عدداً كبيراً ومتزايداً يلبسون الآن الزى الأوروبى، لكن يحس الإنسان أنهم يفتقرون إلى فلسفة هذا الزى.» (المصدر نفسه: ١٣٥-١٣٦) |
| **الأطعمة وطريقة الأكل:** «الشرقيون لا يأكلون بقصد الفائدة، إنهم يأكلون بقصد اللذة... غالباً ما تراهم يأكلون، على أرصفة الشوارع، فى الدكاكين، فى المقاهى، وحتى فى دور السينما، وفى الأماكن العامة الأخرى... إنهم يأكلون فى كل وقت. ويأكلون كميات كبيرة... إنهم يملأون عشرات الصحون بأشياء لا قيمة غذائية حقيقية لها.» (المصدر نفسه:١٤١-١٤٢) |

| |
|---|
| **الطبيعة والطقس**: «البرد قاس، ويزيده قسوة بدائية الوسائل المستعملة للوقاية منه. هنا لا يبدأ الربيع هكذا [مثل بريطانيا] إنه انفجار مفاجئ ولا يمكن للإنسان أن ينساه أبداً... الشرق بكلمة واحدة: الشمس. حسين تتسلّق الشمس الأفق الشرقى، تبدأ الدنيا تغلى، ثمّ تشتعل، وأخيراً تلتهب. وتنعكس آثار الشمس هنا على الحياة كلّها، فالحياة أثناء النهار كسولة ملولة نزقة.» (المصدر نفسه: ١٢٤ – ١٢٦) |
| حيوانات الشرق: «أما الحيوانات فأقل ما يقال عنها إنها حيوانات شرقية: كسولة، بليدة، بطيئة الحركة وعديمة الاستجابة. يقف الحمار ساعات طويلة فى مكانه تحت الشمس المحرقة لا يتحرّک. أما القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات، فإنها لا تستجيب مطلقاً لدعوة الأكل.» (المصدر نفسه: ١٢٨) |

تجدر الإشارة إلى أن القضايا المذكورة أعلاه تعدّ نموذجاً من نماذج كثيرة، لم نتمكن من الإتيان بها كلها فى الجدول للحدّ من الإطالة؛ لأنه كما أشرنا سابقاً، فإن ملاحظات ماكدونالد ومونولوجه الذاتى، حول بيئة إيران قد أفردت لها أجزاء كبيرة من الرواية. وغنى عن القول بأنه لأجل فهم أسلوبها السردى يجب الرجوع إلى النص الرئيس للرواية، على سبيل المثال يتمّ تخصيص عدة صفحات من الرواية لوصف بيتر للسكوک الشرقيين وتصرفاتهم.

## ٤. العلاقات التناصية بين الرواية ونصوص الاستشراق

يمثّل السياق التناصى للرواية، إحدى الجوانب البارزة لعلاقة "سباق المسافات الطويلة" بأسس الاستشراق. فالكاتب وإلى جانب محاكاة النصوص الاستشراقية فى السرد والمضمون و...إلخ، قد أدرج فى النصّ الروائى عبارات وأقوالاً للمستشرقين المشهورين والشخصيات البارزة فى الإمبراطورية البريطانية فى عصرها الذهبى. وإنّ لهذه المقاطع والأقوال وظيفة محورية فى تفكّک خطاب الاستشراق وهى أنّها فى الحقيقة تمثّل شفرات كامنة فى النصّ الروائى تُحدث قفزات زمنية تُعيد القارئ إلى عصر الاستشراق الذهبى؛ ومن خلال استدعاء شخصيات تاريخية –التى لعبت دوراً مهمّاً فى بناء الإمبراطورية– تتمّ موازنة بين النصّ الروائى والنصوص الاستشراقية.

هذا السياق التناصى يتكوّن من قسمين مختلفين، لكنهما مترابطين مع بعض: القسم

الأول هو الأقوال المذكورة فی مستهلّ کلّ فصل، وهی عبارات لشخصیات بریطانیة شهیرة لیست إلا، وهی شخصیات لها صلة وطیدة بأسس الإمبراطوریة بشکل أو بآخر. فی الجدول أدناه، نلقی نظرة علی تلک العبارات:

| |
|---|
| **الفصل الأول؛ شخصیة بریطانیة مجهولة:** «مَن یملک الشرق، یملک العالم.» (المصدر نفسه: ۷) |
| **الفصل الثانی؛** توماس إدوارد لورنس: «إذا لبستَ اللباس الشرقی، کن شرقیاً بکل معنی الکلمة. اترک علی الساحل کل ما هو إنکلیزی وتبنّ العادات الشرقیة بکاملها، ویمکن للأوروبی، إذا انطلق من هذا المستوی، أن یتغلّب علی الشرقیین فی میدانهم الخاص.» (المصدر نفسه: ۹۳) |
| **الفصل الثالث؛** توماس إدوارد لورنس: «إکسب ثقة زعیمک واحتفظ بها. إیاک أن ترفض الخطط التی یتقدم بها، لکن تأکّد من عرضها علیک أولاً. وافق علیها دائماً، ثمّ بعد أن تمتدحها إعمل علی تعدیلها بشکل یدلّ علی أنّ التعدیل هو من اختراعه...» (المصدر نفسه: ١٤٩) |
| **الفصل الرابع؛ ۱. کلیمان (مؤرخ بریطانی):** «کان علی بریطانیا أن تعارض المطامع الإقلیمیة لحلفائنا منذ البدایة، وأن تبین لهم أن هذه المعارضة لا تتنافی وأصول السیاسة.» **۲. رئیس وزراء بریطانی:** لیس لبریطانیا أصدقاء دائمون، ولیس لها أعداء دائمون، إن لبریطانیا مصالح دائمة» **۳. توماس إدوارد لورنس:** «النصر مع الإخلال بالوعد أفضل من الهزیمة» (المصدر نفسه: ۲۷۷) |
| **الفصل الخامس؛** تشرشل: «لم أصبح رئیس وزراء جلالة الملکة لکی أصفی الإمبراطوریة البریطانیة.» (المصدر نفسه: ۳٦۷) |

وممّا هو جدیر بالذکر والملاحظة هو أنّ العبارات أعلاه ترتبط ارتباطاً وثیقاً بکلّ فصل من الفصول الخمسة. ففی الفصل الأول، الذی یعدّ نوعاً ما منطلق السباق الاستعماری، وردت عبارة «إنّ من یملک الشرق، یملک العالم» التی تبرّر بشکل أو بآخر رحلة ماکدونالد للشرق بغیة السیطرة علیه وإحیاء الإمبراطوریة. أما فی الفصلین الثانی والثالث أی بالتزامن مع دخول ماکدونالد إیرانَ وبالتالی سیطرة الأجواء الاستشراقیة علی فحوی الروایة، ترد عبارات شهیرة لتوماس إدوارد لورنس (لورنس العرب) الذی کان من أنجح الشخصیات فی تاریخ الإمبراطوریة البریطانیة وتمریر السیاسات الاستعماریة فی الشرق الأوسط؛ وفی الفصل الرابع، حیث یبلغ السباق

الاستعمارى ذروته، يذكر الكاتب عبارات تدلّ على جوهر الخطاب الاستعمارى وسياسة الإمبريالية التى لا تعترف بأى صداقة عند سعيها تحقيقَ مصالحها التوسّعية. وأخيراً وفى الفصل الخامس، إذ يرسم الكاتب هزيمة بريطانيا فى السباق الاستعمارى وتفكّك خطاب الاستشراق، تظهر عبارة شهيرة لتشرشل فى مقدمة الفصل يستبعد فيها رئيس الوزراء البريطانى المحنّک سقوطَ الإمبراطورية.

غير أنّ لهذا السياق التناصى جزءاً آخر يزيد حجماً عمّا ورد فى مستهلّ الفصول من أقوال، وهو كلمات وعبارات راندلى يتردّد صداها بشكل مباشر أو غير مباشر فى رأس ماكدونالد كنزول الوحى السماوى: «وعاد يتذكّر كلمات راندلى...» (المصدر نفسه، ٧٢) وراندلى الذى عمل مسئولاً رفيع المستوى للحكومة البريطانية فى مستعمراتها المختلفة فى كافة أنحاء العالم، يلعب اليوم دور الأب الروحى لبيتر حاملاً عالَماً من الخبرة الاستعمارية وراسماً له خارطة الطريق: «انتبه يا بيتر... هؤلاء الناس لهم صفتان: الحماقة والسرعة. إنهم حمقى لا يعرفون شيئاً، لا يعرفون كيف يفكّرون، كيف يتصرّفون، ولذلک فإن كلّ أفكارهم وتصرفاتهم تتّسم بهذا المقدار الكبير من الحماقة... يجب أن تتخيل جزءاً كبيراً من حماقاتهم وتتحمّلها، تبتسم لها، لأنّ كلّ خطوة حمقاء تقرّب الطريدة من الصياد...» (المصدر نفسه، ٣٣) السياق التناصى هنا يكمن فى الانطباق الكامل بين خطاب راندلى وخطاب لورنس وآخرين من الشخصيات الاستعمارية البارزة التى وردت أقوالهم فى مستهلّ الفصول: «لا تقل لهم شيئاً نهائياً، إنّهم عنيدون، إذا تصوّروا أنّ لنا رأياً غير رأيهم فسوف يصبحون خصوماً لنا، دعهم يظنّون أن ما يقولونه وحده الصحيح، لكننا وحدنا سنفعل ما نراه ضرورياً وصحيحاً.» (المصدر نفسه، ٨٢)

## أفول الاستشراق فى عصر ما بعد الاستعمار

ما ذكرنا من قضايا تؤيد العلاقة الوطيدة التى تربط رواية "سباق المسافات الطويلة" بأسس الاستشراق؛ غير أنه لَمن الواضح بأن منيف لم يتحمّل عناء تأليف رواية كبيرة تضم ما يقارب ٤٠٠ صفحة حتى يقدّم نسخة طبق الأصل للقرّاء، ويقول لهم، على

سبيل المثال، بأن المستشرقين الغربيين كانوا يضعون الشرق محور أو موضوع دراساتهم وبحوثهم التاريخية والثقافية. فمن منظار نقد ما بعد الاستعمار، تحمل "سباق المسافات الطويلة" رسالة موت الاستشراق التقليدى أو على أقل تقدير، تحوّله النوعى فى عصر ما بعد الاستعمار. فلو كان الاستشراق سابقاً يعنى تحوّل الشرق إلى موضوع للدراسات الغربية أو، بعبارة أجل، نظرة "أنا" الغربى إلى "الآخر" الشرقى، ففى "سباق المسافات الطويلة" قد تغير طرفا المعادلة أى "أنا الغربى" و"الآخر الشرقى" ودخلت هذه الثنائية مرحلة جديدة لم يعد فيها المشاهِد الغربى –أو على أقلّ تقدير بنفس أسلوب وسياق النصوص الاستشراقية– بمقدوره إعتبار الشرقى الآخرَ (عديمَ الحضارة/همجياً/ذا البشرة السمراء و...). ببيان آخر، إنّ الكاتب يدحض الخطاب الاستشراقى بل يستهزئ بأسسه عبر تقديم صورة جديدة عنه تزخر بالمفارقة والتناقض. وبغية فهم هذه الصورة الجديدة فى رواية "سباق المسافات الطويلة" نقوم بتحليل الموضوع من منظار طرفَى المعادلة: بيتر ماكدونالد (أنا الغربى) والمجتمع الإيرانى (الآخر الشرقى).

## ١. انهيار الاستشراق من منظار "أنا" المستعمِر

إنّ بيتر ماكدونالد، هذا العميل البريطانى فى إيران، شخصية متعجرفة وأنانية، دائماً ما يضع فى الرواية قِيمه المعيارية/المدنية/المتقدمة أمام قيم الشرقى غير المعيارية/البدوية/الدنيئة. وكما لاحظنا فى الجدول الخاص بفحوى الرواية، فإنه يرى أن الشرقيين غارقين فى الغرائز الإنسانية الدنيئة، ولا قيمة روحية ومتقدمة للإنسان الشرقى، من منظاره الضيق؛ يكيل المدح لحضارته الغربية وثقافته البريطانية ويرى أن حضارة الآخر رذيلة وغير إنسانية؛ حتى الطبيعة والحيوانات الشرقية ليست بمنأى عن نظرة بيتر الاستشراقية. لكن هذا الخطاب الاستشراقى المتعجرف يفقد مصداقيته وصوابيته بل يتّخذ طابع المفارقة والسخرية لمّا يقع إلى جانب الهدف الذى يسعى بيتر وراءه ولأجله قصد الأرض الشرقية (إيران). وبعبارة أخرى لو كان المستشرقون فى عصر فيكتوريا يتظاهرون بأنهم يقصدون الشرق بهدف الاستطلاع وكشف مكامن السرّ فى الشرق راغبين نقل الحضارة إلى أناس غير حضاريين، فاليوم تمّ إيفاد بيتر ماكدونالد

من مركز الإمبراطورية الاستعمارية إلى أرض شرقية لكى يضمن مصالح بريطانيا الاستعمارية فى الشرق، وذلک باللجوء إلى العنف ومختلف الأساليب الإرهابية (القتل والاغتيال والانقلاب و..). ففى كتابات الاستشراق، كانت الشعوب الشرقية نموذجاً للبربرية والعنف والبداوة تنبهر بالغرب انبهاراً مطلقاً وتنتظر رسالة الاستعمار المتقدمة لتخرج من النزق وتواكب الحضارة الجديدة؛ بينما فى "سباق المسافات الطويلة" وعبر التمظهرات التى ذكرناها أعلاه (أسلوب السرد، وفحوى الرواية، والعلاقات التناصية) تسقط الأقنعة وينكشف زيف الخطاب الاستعمارى، إذ نرى الجانب الغربى، وحفاظاً على ثرواته النفطية ومصالحه الإستراتيجية، يمارس أشرس أساليب الإبتزاز منها القتل والإغتيال والانقلاب العسكرى، وذلک فى بلد يتمتّع بسيادة أرضية مستقلة. وفضلاً عن هذا، فإنّ عنفه فى حقبة ما بعد الاستعمار، انتقل من السطح إلى الجوف واتّخذ منحى جديداً متطوّراً مع دخول الإمبرالية الجديدة على الساحة.

لكن هذه المفارقة لها وجه آخر، ألا وهو تشكيک بيتر ماكدونالد نفسه فى إستمرارية عظمة الإمبراطورية وإعادة هيمنتها على الشرق. ففى خضمّ أحداث الرواية، يرى بيتر ماكدونالد بأمّ أعينه تهميش بريطانيا المتزايد فى معادلات سياسية للأرض الشرقية، وكذلک تغيير نظرة المجتمع الشرقى إلى الإمبراطورية البريطانية، مستهزئاً عبر مونولوجه الداخلى أسسَ الإمبراطورية البريطانية: «يمكن أن تفكر لندن وتقرّر كما تشاء، لكن أقلّ وصف يمكن أن توصف به أفكارها وقراراتها هو أنها غبية... غبية حتى الثمالة.» (المصدر نفسه: ٢٣١) ويذمّ سياساتهم التسلّطية اللاإنسانية: «لندن لا قلب لها؛ إن الدولة ليست مجموعة أفراد، إنها كتلة صمّاء لا تعرف المشاعر أو اللحظات الإنسانية، تعرف فقط المصالح؛ والإنسان الفرد بمقدار ما يخدم هذه المصالح، فإنه موجود ومقبول.» (المصدر نفسه: ٣٣٧) ويصف سياسيات لندن البالية، التى فقدت مفعولها كما كانت عليه سابقاً، بالمتخبطة. على سبيل المثال، نعرف بأن إحدى سياسات الاستعمار الكلاسيكى كانت تبجيل تقاليد وعادات سكان المستعمرات وحتى التقمّص بها فى وقت الضرورة؛ لكن بيتر يرى بأن مثل هذه السياسات عفى عليها الزمن وهى الآن عديمة الفائدة فقدت فاعليتها السابقة: «يجب أن أصبح قرداً وأرقص لهؤلاء الشرقيين من

أجـل أن يرضوا، عند ذاک يمكن لراندلی أن يعتبرنی ناجحاً... ومثل هذا التصور الأبله ينتهی إلی فاجعة.» (المصدر نفسه: ٢٣٣) ويصف الساسة البريطانيين بالحمقی: «مهما قالت لندن، فإن رجالنا أغبياء، أنانيون، كسالی، مليئون بالأحلام.» (المصدر نفسه: ٢٨٦) وأخيراً يوجّه ماكدونالد، بعد مشاهدة سلوكيات وتصرفات الشرقيين ومعتقداتهم عن كثب، النقدَ اللاذع لكتابات المستشرقين، ويعدّ صورتهم المرسومة عن الشرق وهمية لا تمتّ بالحقيقة بصلة: «ليس سهلاً أن تفهم الشرق أو تتعامل معه، حتی لتبدو لی الآن جميع الكتب التی قرأتها أو الأحاديث التی سمعتها عن الشرق مجرد كلمات فارغة التقطها أناس عابرون وسجّلوها بطريقة ما لكی يدللوا لأنفسهم أو لمواطنيهم أنهم زاروا الشرق وعرفوا أسرارها.» (المصدر نفسه: ٢٤٧)

## ٢. إنهيار الاستشراق من منظار "الآخر" المستعمَر

أما الجانب الآخر من تفكّک خطاب الاستشراق يرتبط بالطرف الثانی للمعادلة أی "الآخر الشرقی"؛ الآخر الطالب بهوية مستقلة لذاته وهو يمرّ بفترة أفول الاستعمار، داحضاً خطاب الاستشراق الضيق الذی يهمّشه ويعتبره الآخر. إن عملية التحول فی عقلية الشرقيين تأخذ تجليات متعددة فی "سباق المسافات الطويلة" يمكن العثور علی أبرزها وأكثرها فنية فی الجزء العاشر والحادی عشر من الفصل الرابع للرواية. فی هذين الجزءين، تقوم لندن باستدعاء بيتر ماكدونالد وإرغامه علی رحلة سياحية فی الأرض الشرقية. إنه يختار منطقة ساحلية شمالی البلاد تتمتّع بأجواء طيبة ومناظر خلابّة (تنطبق تماماً علی المناطق المطلّة علی بحر قزوين شمالی إيران). إنها المرة الأولی التی تتسنّی لماكدونالد الفرصة طيلة سنوات تواجده فی إيران كی يتسكّع فی الأحياء الشعبية ويتعرّف عن كثب علی معتقدات عامة الناس وأفكارهم. القضية الملفتة للنظر هی أنّ ثمة أجانب آخرين يعيشون فی القرية التی يسكن فيها بيتر، وهم من أبناء دول أوروبية غير إستعمارية مثل اليونان والنرويج وبلغاريا. لقد قصد هؤلاء كلّهم أرض إيران لأهداف ونوايا حسنة، إذ يعمل البلغاريون واليونانيون فی مصانع إنتاج السكّر بالقرب من القرية، والعالِم النرويجی قصد المنطقة للقيام بأبحاث حول النباتات فی هذه المنقطة.

فى مثل هذه الأجواء وبينما يتوقّع بيتر أن يحترمه السّكان المحليون احتراماً ويخضعون أمامه ويمدحون مكانته، بصفته موفداً من الحكومة البريطانية وبصفتهم آخرين ومهمّشين، يتفاجأ من ردّة فعلهم وتعاملهم معه الذى يتّسم بالريبة والشكّ وحتى العداء: «منذ اللحظة التى وصلتُ فيها، وأينما كنتُ أذهب، كنت أقابل بنظرات التوجّس والتساؤل، ولقد خلق هذا حاجزاً بينى وبين الناس.» (المصدر نفسه: ٣٤٤) لكن فى المقابل، يرى بيتر بدهشة أنّ السكّان المحليين يتعاملون من منطلق حسن الضيافة واللطف والمحبة مع الأوروبيين الآخرين وقد بنوا علاقات وطيدة بهم: «كان السكان المحليون ينظرون إلى هؤلاء البلغار بنوع من المودّة الظاهرة، وكانوا لا يتردّدون فى أن يستوقفوهم فى الشارع ويتحدثوا إليهم. وأنا... لماذا ينظرون إلى تلك النظرة المرتابة الخائفة؟ إننى الآن أتساءل بمرارة: أين كنا؟ وماذا فعلنا؟ ولماذا ينظر إلينا الناس هذه النظرة؟... لماذا يتعاملون مع ذلك النرويجى الذى لا أحد له، ولم يفعل من أجلهم شيئاً، بطريقة تختلف عن الطريقة التى يتعاملون بها معى؟» (المصدر نفسه: ٣٤٦) وفضلاً عن السكان الأصليين، يسعى الأوروبيون المهاجرون أيضاً إلى الإبتعاد عن بيتر قدرَ الإمكان: «كان بودّى أن احتكّ بهم [البلغار] وأن أحادثهم، لكن حين عرفوا أنى إنكليزى، تظاهروا تماماً أنهم لا يحسنون كلمة واحدة من الإنكليزية.» (المصدر نفسه: ٣٤٥)

فى الحقيقة، فإن هذه الإزدواجية فى التعامل مع الأوروبيين المستعمرين وغير المستعمرين تعبّر عن تفكّك مفهوم الأنا/الآخر أو التحوّل النوعى الذى يطرأ عليه فى عصر ما بعد الاستعمار. فالسكان المحليون، الذين يمكن اعتبارهم بالعلاقة الجزئية كلّ شعوب الشرق، لم يعد يتحملّون سيطرة المركزية الأوروبية وتفرعنها. فانّ حضور الأوروبيين بمختلف أعراقهم وأفكارهم، لهو تأكيد على أنه فى عصر ما بعد الاستعمار، لم تعد الشعوب الشرقية مهمّشين مستعمَرين كما كانوا عليه بالأمس، وإنما يطالبون ببناء علاقة يسودها الاحترام المتقابل، فى البحث عن الهوية المستقلة؛ وهذا ما يستنتجه بيتر فى آخر لحظات تواجده فى تلك المنطقة: «فى الشرفة المطلّة على البحر، فى ذلك الصباح من آب، عرفت ماذا تعنى بريطانيا، الآن، خاصة بالنسبة لهؤلاء الشرقيين! وتأكّدت أن كثيراً من الأحلام التى ملأت رؤوسنا، خلال عشرات السنين، تنهار وتنتهى

دفعة واحدة... وأنا بيتر ماكدونالد، واحد من الحالمين الكبار، أستيقظ الآن...» (المصدر نفسه: ٣٥٣) ويعمّم الوعى الجديد بالهوية على الشرق برمّته: «إنّ ما حصل فى هذه الأيام يمثّل الشرق تماماً، ويعطى فكرة دقيقة عن طريقة الشرقيين فى التفكير والمقاومة.» (المصدر نفسه: ٣٩٢)

**النتيجة**

إنّ رواية "سباق المسافات الطويلة" سواء فى جانب محورية شخصية المستعمِر أو فى جانب تماثل نصوص الاستشراق، تمثّل منعطفاً ضمن أعمال عبد الرحمن منيف السردية. إنّ الدلالات ما بعد الاستعمارية لهذه الرواية تتجلّى فى عنصرى التاريخ والاستشراق.

فى مادة التاريخ، قد اختار المؤلف انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ فى إيران رمزاً لدخول العالم فى مرحلة ما بعد الاستعمار وظهور الاستعمار الحديث. على هذا، فإن بريطانيا التى تمثّل الاستعمار التقليدى، مازالت تحاول وبأساليب استعمارية فى العصر الفيكتورى، الحفاظ على مصالحها فى الشرق، غير أن القوة الإمبريالية الجديدة المتمثّلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، مدركة طبيعة العلاقات فى المرحلة الجديدة للعالم ولاسيما تأثير النفط الكبير، تُعيد ترتيب الهيمنة الإمبريالية.

فى مادة الاستشراق، تحمل رواية "سباق المسافات الطويلة" رسالة موت الاستشراق الكلاسيكى أو، على أقلّ تقدير، تحوّله فى حقبة ما بعد الاستعمار. فهذه الرواية لها علاقات وطيدة بنصوص الاستشراق يمكن ملاحظة أبرزها فى أسلوب السرد ومضمون الرواية والسياق التناصى للرواية مع النصوص الاستشراقية. لكن بالرغم من تلك العلاقات فإن "سباق المسافات الطويلة" وخلافاً للنصوص الاستشراقية التقليدية التى كانت تقدّم صورة نموذجية للحضارة الغربية، فإنها ترسم الأهداف الخطيرة للإمبراطورية البريطانية فى الحفاظ على مصالحها الاستعمارية فى الشرق، وذلك من منظور "أنا المستعمِر" و"الآخر المستعمَر". فمن منظار "أنا المستعمِر"، تستهزئ الشخصية الرئيسية للقصة بأسس الإمبراطورية وذلك فضلاً عن فضح سياسات بريطانيا فى الحفاظ على

مصالحها فی الشرق، وتصف استمرار سیاساتها الاستعماریة التقلیدیة بغیر المجدیة والعبثیة. أما من منظور "الآخر المستعمَر" فإن "سباق المسافات الطویلة" تقدّم صورة مختلفة لأسلوب مقاومة المجتمعات الشرقیة بوجه المرکزیة الأوروبیة؛ وفی هذه الروایة، یتعامل عامة الناس فی الأرض الشرقیة (إیران) وخلافاً لساستهم، تعاملاً مهیناً ومریباً مع مندوب من الاستعمار التقلیدی. إنهم لم یعد یتحمّلون سیطرة المرکزیة الأوروبیة کما کانوا بالأمس، وإنما یطالبون ببناء علاقة مؤسسة علی الاحترام المتقابل، باحثین عن هویة مستقلة.

## المصادر والمراجع


آبراهامیان، یرواند. (١٣٩٢ش). إیران بین دو انقلاب. ترجمة احمد گل محمدی ومحمد إبراهیم فتاحی. ط ٢١. طهران: نشر نی.

ـــــــــ. (١٣٨٩ش). تاریخ إیران مدرن. ترجمة محمد ابراهیم فتاحی. ط ٣. طهران: نشر نی.

إبراهیم، صالح. (٢٠٠٤م). أزمة الحضارة العربیة فی أدب عبدالرحمن منیف. ط ١. بیروت: المرکز الثقافی العربی.

بلقزیز، عبدالإله وآخرون. (٢٠١٣م). الثقافة العربیة فی القرن الشعرین. ط ١. بیروت: مرکز دراسات الوحدة العربیة.

بوشعیر، الرشید. (٢٠٠١م). «مساءلة التاریخ فی روایة سباق المسافات الطویلة لعبد الرحمن منیف». مجلة فکر ونقد. العدد ٣٨، إبریل. صص: ١٤٤-١٣٦

جاسم الموسوی، محسن. (١٩٨٨م). الروایة العربیة (النشأة والتحول). ط ١. القاهرة: الهیئة المصریة العامة للکتاب.

حسین شریف، سحر. (٢٠١١م). دراسات نقدیة فی الروایة العربیة. ط ١. القاهرة: دار المعرفة الجامعیة.

درّاج،فیصل وآخرون.(٢٠٠٩م).عبدالرحمن منیف٢٠٠٨.ط ١.بیروت:المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

سعید، إدوارد. (٢٠٠٦م). الاستشراق. ترجمة محمد عنانی. ط ١. القاهرة: دار رؤیة للنشر والتوزیع.

صالح، صلاح.(٢٠٠٣م). سرد الآخر: الأنا والآخر عبر اللغة السردیة. ط ١. بیروت: المرکز الثقافی العربی.

منظم، هادی؛ کبری روشنفکر، ومحمد رجبی. (١٣٩٩ش). «الآخر الشرقی من منظور الأنا الغربیة فی روایة سباق المسافات الطویلة لعبد الرحمن منیف». مجلة آفاق الحضارة الإسلامیة. السنة ٢٣، العدد ١، ربیع وصیف. صص ٢٨٦-٢٥٩

منیف، عبدالرحمن.(٢٠٠٠م). سباق المسافات الطویلة. ط ٨. بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

ـــــــــ. (٢٠٠٧م). الکاتب والمنفی. ط ٤. بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

ناظميـــان، رضا؛ فاطمة كاظمی. (١٣٩٤ش). «تاريخ مداری در رمان های "سووشـــون" از ســـيمين دانشـــور و "سباق المســـافات الطويلة" از عبدالرحمن منيف». نشريه ادبيات تطبيقی. پاييز وزمستان. دوره ٧، شماره ١٣. صص ٢٦٨-١٤٥